كيركجارد

بقلم : شعبان بركات

كتب جسبرز عام ١٩٣٥ يقول : « تخضع الفلسفة في الوقت الحاضر لتأثير فيلسوفين الا وهما نيتشه و كير كجارد. ومع ان هذين الفيلسوفين لم يثيرا اي اهتمام في حياتهما بل ظلا بعيدين عن عناية الفلاسفة، فان تأثيرهما اخذ يعظم شيئاً فشيئاً، بينما اخذ تأثير سائر الفلاسفة الذين ائتموا بهيجل يضعف ويضمحل »

« ذلك ان كلا من كير كجارد ونيتشه قد ظهرا في فترة كانت الانسانية تجتاز فيها مرحلة جديدة من تاريخها، وانهما قد ادركا جمال العصر الجديد الذي يطل عليهما . وإذا كان تاريخ اوروبا إن هو إلا تاريخ « ازمات » (Tensions) تعبر عن ذاتها من خلال شخصيات نادرة فان ذلك يبدو بوضوح في كل من هذين الفيلسوفين » [١]

١ – حياته :

ولد سورين كير كجارد Soren Kier Kegaard في الخامس من شهر ايار سنة ١٨١٣ في كوبنهاجين . فكان آخر ولد انجبه ابواه وقد بلغ والده السادسة والخمسين بينما اتمت امه الرابعة والاربعين من عمرها . وقد تأثر سورين في شبابه بوالده تأثراً كبيراً . بدأ والده حياته راعياً معدماً فثار على حالته تلك ضد الله ثورة اشبه بثورات العهد القديم [٢] . ثم غادر قريته في البحث عن الثروة الى العاصمة، فنجح واثرى من تجارة البقالة ثم انقطع عن العمل في الاربعين من عمره كي يكرس ما تبقى من حياته للثقافة العامة .

كان والد سورين كير كجارد لا يزال فريسة للندم الذي اجتاحه إثر ثورته ضد الله ولسبب الخطيئة التي ارتكبها بزواجه، اثر وفاة زوجته ، من خادمته . فراح يبحث عن الحقيقة الدينية من طرق متعددة خلال الاجتماعات التي كان يعقدها في بيته مع طائفة من الاصدقاء ومنهم الراهب مينستر .

كان سورين الشاب يفضل صحبة والده واصدقائه على صحبة والدته واخوته الستة ، ذلك الوالد الذي فتح قلبه على ضرب من المسيحية مليء بالقلق

ولقد برهن كير كجارد اثناء دراسته عن ذكاء نادر وميل شديد نحو الأدب والخطابة ، وهذا ما حدا بوالديه على حمله للتخصص في اللاهوت . واستمرت هذه الدراسة احد عشر عاماً قضاها كير كجارد في اللهو والعبث . وكان همه خلال هذه الفترة من حياته اثارة اعجاب اصحابه بأناقة ملبسه وفصاحة بيانه . وكانت الدانمرك لا تزال حينئذ تحت تأثير الثورة الفرنسية . كما ان الأدب والدين قد تأثرا اكثر ما تأثرا بالفكر الجرماني ولا سيما جوته وشيلر . وكان تأثير هيجل آنئذ قوياً في اوروبا الوسطى فأخذ الفقهاء البروتستانت يحاولون التوفيق بين الديانة المسيحية وفلسفة هيجل . بيد ان هذا لم يمنع بعض الفلاسفة الشبان امثال سيبرن من الثورة على هذه الفلسفة . فما عتم كير كجارد ان انضم إلى هذه المعارضة معلناً ان الفلسفة في الدانمارك إنما هي « فلسفة الوجود » .

وكان هذا « الوجود » بالنسبة لكير كجارد في هذه الفترة هو « الوجود الفني » الذي يسمو على الوجود الواقعي . ولهذا فقد أعجب بموزار محاولاً ان يجد في موسيقاه ما يشبع نزعاته الجنسية الكامنة .

غير ان الحوادث لم تعتم ان أدت به الى ميدان الاخلاق والدين . هذه الحوادث هي « الزلزال الارضي » ، الذي حدث عام ١٨٣٧ فتراءت لكير كجارد من خلاله خطيئة والده فاذا به يدخل عالم « الخطيئة » فلا يغادره طيلة حياته . وهناك حادثة اخرى وقعت في التاريخ نفسه ألا وهي قصة خطبته لرجين اولسن عام ١٨٤٠ ، تلك الخطبة التي كان لها تأثير كبير في حياته وفلسفته . وقد لقب كير كجارد خطيبته في يومياته بـ « ملكة قلبه » .

لكن الايام ما لبثت ان كشفت عن مرض نفسي عند كير كجارد هو نتيجة للقلق الذي انتابه في طفولته ، وما كان لهذا القلق من تأثير في شهوته الجنسية . وهكذا نرى الخطيب الذي كان يجهد لاغراء خطيبته والسيطرة عليها ، تلك الخطيبة التي سوف تذيقه نعيم الحب ، يفشل في إتمام ذلك في واقع الحياة . حتى ان الذعر لينتابه كلما تراءت له ضرورة الاتصال

(١) راجع كارل جسبرز (نيتشه) الترجمة الفرنسية باريس سنة ١٩٥٠ ص ٢٠١ من المقدمة بقلم جان فال .

(٢) راجع بيير مينار « كير كجارد » باريس ١٩٥٤ ، ص ١–٢ .

بزوجته فيفضل ان يموت ليلة زواجه .

وكانت خطيبته رجين تحس ، امام هذا الخطيب « الخيالي» بأنوثتها تتفتح يوماً بعد يوم . بيد انه كان لا بد ان ينتهي بهـا الحال الى الانفصال في الحادي عشر من تشرين سنة ١٨٤١ فلا تلبث رجين ان تتزوج من خطيبها السابق .

كان لهذا الحب تأثيره العميق في نفس كير كجارد فاذا به يتساءل عما إذا لم يكن هذا الانحدار بداية لحياة أسمى هي حياة « الوحدة امام الله » .

وهكذا فان كير كجارد حين أبحر في الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٤١ الى ألمانيا ، لم يكن فقط ذلـك المحب الذي يفر امام ماضيه بل كان ايضاً ذلـك الرحالة الذي يبتعد عن ماضيه ليغير نظرته الى الحياة ثم يضرب في انحـاء الارض باحثاً عن « الوجود » .

وتعتبر الفترة المقبلة أخصب فـترة في حياة كير كجارد إذ ان ازدهار الحياة العقلية في برلين قد أثاره فلم يحفظ من محاضرات شيبلنغ حينئذ سوى كلمة « الواقع » la Réalité التي كانت تدفعه الى تعمق معنى الوجود . واي وجود يتعمق إن لم يكن وجوده ؟ وأنى له ان يتعمق هذا الوجود إذا لم يبرره في نظر رجين والآخرين وربما امام الله نفسه ! ذلك لان هذا التحليـل الفلسفي والادبي لوجوده امتحان لضميره يثير في نفسه أزمـة دينية لا بد لها من حل .

عاد كير كجـارد في السادس من نيسان سنة ١٨٤٢ الى كوبنهاجن ليصدر طائفة من الكتب تتجلى فيها مختلف نزعاته في شكل جدلي « dialectique » وقد تجسمت هذ الافـكار في نماذج اشبه بنماذج موسيه او بلزاك ، ورغم الازمة النفسية التي تمخضت عنها هذه المؤلفات فانهـا قد اشاعت في حيـاة المؤلف شيئاً من الاتزان فذاع صيته واشتهر اسمـه في القصر وبين الطلاب .

لكن خصومة جديدة قضت على هذا الاتزان . وذلك أن احد النقاد سخر من فلسفته وهزيء من شخصه . يضاف الى هذا زواج رجين من خطيبها الاول سنة ١٨٤٧ .

وهكذا عاد كير كجارد الى عزلته ، فكان من نتيجة هذه الازمة النفسية الجديـدة ان افضت به الى الاعـتراف بقيمة جدلية « الناس » ، فاخذ الدين يجتاح مذهبه رغم ان ديانته ظلت ديانة ذات طابع شخصي يائس . وقد توفي كير كجارد في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٥٥ .

٢ – فلسفته

يحاول كير كجارد في فلسفته ان يجعل من حياته الخاصة ميداناً للتجربة كي يجد في هذه الحياة القيم التي يضفيها الناس عليها .

ويظهر ذلك في اول كتـاب له وهو « فكرة السخرية عند سقراط » (عـام ١٨٤١) وذلك لأن قيمة السخرية في نظر كير كجارد هي في انها تحتوي عـلى نقد لكل نزعة فكرية تصورية او اجتماعية كما انها تتضمن في الوقت نفسه اعترافاً بقيمة الوجود . وتتبدى هذه السخرية عنـد سقراط الانسان الذي يرفض حياة معاصريه وآراءهم ويحاول بأسئلته ان يدفع بمعارضيه الى النظر في هذا الفراغ الذي يخلقـه فيهم . وكذلك فإن من نتيجة السخرية ان تطرد الألم من عالم المأساة المسرحية (Tragdie) الى عالم المأساة الداخلية الانسانية .

يرى كير كجارد ان الوجود يمر بأطوار ثلاثة :

(١) الطور الفني (Le Stade Esthetique)
(٢) « الاخلاقي (Le Stade Ethique)
(٣) « الديني (Le Stade Religieux)

« وكلاء الآداب »

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات
العراق : وكالة فرج الله للمطبوعات : محمود حلمي
البحرين : المكتبة الوطنية لصاحبها ابراهيم محمد عبيد
الكويت : مكتبة الطلبة لصاحبها عبد الرحمن الخرجي
تونس : وكيل شركة فرج الله للمطبوعات : الهادي ابن عبدالغني ، نهج الكتبية رقم ١٠
طنجة : مكتبة الصاحب . لصاحبها محمد العمري
ليبيا : المكتبة الوطنية – بنغازي
مصر : دار الكشاف ٣٧ شارع عبدالعزيز بالقاهرة
الخرطوم : السيد حلمي القباني
باريس : المكتبة الشرقية
15 Rue Monsieur - le - Prince — Paris

(١) الطور الفني :

يسعى الانسان في هذا الطور من حياته الى إرضاء حساسيته كما فعل «السبياد» بطل اللذة الذي كان موضع نقد سقراط السافر وحبه. وتمتاز الحساسية بالتعدد . غير ان جميع ابطالها يخضعون للشهوة désir التي تعـــبر عن ذاتها في الشهوة الجنسية . ولهذا لجأ كير كجارد الى موزار كي يفهم قوة الشهوة الجنسية وقدرتها على تنظيم الوجود .

ذلك لأن شخصية دون جوان عند موزار تعـبر عن قوة الهوى Passion الذي لا يكتفي باجتيـــاح ضمير البطـل بل يتعداه الى سـائر الأشخاص الثانويين . وهكذا فان موسيقى دون جوان التي تشـــير الى انتصار الاغراء المخيف تعـــبر بصورة صادقة عن انتصار الوجود الفني كما تعبر عن مطامع هذا الوجود . بيد انه يجب تهذيب الشهوة الجنسية حتى يصبح الاغراء فناً خاصاً يسعى الانسان من ورائه الى اطلاع المرأة على ذاتها دون السقوط بها في فخ الامتلاك الجسدي. ولهذا فان برنامج يوحنا، احد ابطال كير كجارد ، هو « اغراء الفتاة وجذبها اليه دون امتلاكها» .

(٢) الطور الأخلاقي :

واذا كان من الصعب تحديد الطور الفني لتعدد امكانياته المختلفة فان من السهل تحديد الطور الاخلاقي .

فهو حكمة موحدة (Sagesse unitaire) وحياة متلائمة تسيرها المباديء الاخلاقية . لكن يصعب تشخيص هذا الطور في نموذج متعارف عليه كما هو الحال في دون جوان .

ويرى كير كجارد ان بطل هـذا الطور هو بطل الحياة الزوجيـــة . يرسم لنـــا ، الى جـــانب نظرية الحب الرومانطيقي الذي يظهر « كوقع الصاعقة » (Coup de foudre) ويمتاز بالمتعة العابرة ، ونظرية الحب البرجوازي الذي يقوم على اتفاق اقتصادي واجتماعي ، صورة الحب المسيحي الذي يقوم على عطاء سخي يتبادله شخصان اعترفا امام الله بقبولها المتبادل. غير ان المرأة مخلوق متقلب الاهواء يصعب تقييده في رباط محدد وذلك لأنها تعيش في الميدان الفني ولا تنكشف تماماً الا في الديني . ولهذا فليس الزواج حلاً عاماً . لذلك يجب الاعتراف بوجود حلول اخرى نادرة ، فان من يهجر الحياة الزوجية ليلبي نداء الدين يسمو الى حياة مثلى لا يدركها اكمل الأزواج .

(٣) الطور الديني :

يمكن لكل من الطور الفـــني والطور الاخلاقي ان يحتلا وحدهما مسرح الحياة لكنهما لا يصبحان « طوراً » او «نموذجاً» للوجود إلا بفضل الطور الديني. وذلك لأن هذا الطور الديني يكشف لنا عن « معنى » الغاية التي تقصد اليها « الشهوة » في الطور الفني والهدف الذي يسعى اليه جهدنا الاخلاقي .

كما ان الطور الديني يمكننا من المقابلة بين كل من الطورين ويدفعنا الى الاختيار . ويمتاز الطور الديني بالألم والذاتيـة . ويعتقد كير كجارد ان المسيحية لا تنتمي الى « الموضوعيـة » (Objectivité) بل هي تنتسب الى الذاتيـة (Subjectivité) وذلك لأن أهم مشكلة تعترض سبيل من يريد ان يصبح مسيحياً حقاً هي كشفه عما يسميه كير كجارد «بالديني» (Le Religieux) الذي يفضي به الى الايمان .

ويبدو الايمان في بلاء الحواس المظلم حيث يجب على الفرد ان يفنى عن ذاته . كما انـه يقوم على نضال مع العالم الخارجي يجعل من المسيحي عدواً لقيصر وللنوع الانساني . حينئذ يبدو الألم في جميع أشكاله كما ان الخلوة مع المسيح بدلاً من ان تخفف من حدة هذا الألم، تزيد في تأزمه حتى ان «اليأس يظل طريقاً الى الدين الحق . غير ان المسيحي الذي يشارك المسيح ألمه يقبل في نهاية الأمر ، حسرة الصليب فيفهم حينئذ معنى وعده « غلّتي عذب وعبئي خفيف »

باريس

شعبان بركات

ليسانسيه في الآداب

صدر حديثاً

١٠ قصص عالميـة

تمثل انتاج الجيل الجديد من ادباء القصة في العالم
وقد فازت بجـائزة جويدة « نيويورك هيرالدتريبيون »

نقلهـــا عن الفرنسية

الدكتور سهيل أدريس

دار العلم للملايين – بيروت

الثمن ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها